

## تفسير ابن كثير

المر تُلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنِزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

تفسير سورة الرعد [ وهي مكية ] أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السورة قد

اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل سور ف منهم من قال هي مما

استأثر الله بعلمه فردو علمها إلى الله ولم يفسرها حكاها القرطبي في تفسره عن أبي بكر

و عمر و عثمان و علي و ابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين وقاله عامر الشعبي و سفيان

الثوري والربيع بن خيثم و اختاره أبو حاتم بن حبان و منهم من فسرها و اختلف هؤلاء في

معناها فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنما هي أسماء سور . قال العلامة أبو القاسم

محمد بن عمر الزمخشري في تفسيره و عليه إطباقي الأكثر و نقل عن سيبويه أنه نص عليه

ويعتمد لهذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة "الم" السجدة و "هل أتى على الإنسان" وقال سفيان

الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: الم وحم والمص وصفواتح افتح الله بها

القرآن وكذا قال غيره عن مجاهد وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود عن

شبل عن ابن أبي نجيح عنه أنه قال الم اسم من أسماء القرآن وهكذا وقال قتادة وزيد بن

أسلم ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه اسم من أسماء السور

فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فإنه يبعد أن يكون المص اسم للقرآن كله لأن

المبادر إلى فهم سامع من يقول قرأت المص إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا

لمجموع القرآن والله أعلم. وقيل هي اسم من أسماء الله تعالى فقال عنها في فواتح السور

من أسماء الله تعالى وكذلك قال سالم بن عبد الله وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي

الكبير وقال شعبة عن السدي بلغني أن ابن عباس قال الم اسم من أسماء الله

الأعظم. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث شعبة ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدي

عن شعبة قال سألت السدي عن حم وطس والم فقال ابن عباس هي اسم الله

الأعظم وقال ابن جرير وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا أبو النعمان حدثنا شعبة عن

إسماعيل السدي عن مرة الهمذاني قال: قال عبد الله فذكر نحوه. وحكى مثله عن علي

وابن عباس وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء

الله تعالى وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث ابن علية عن خالد الحذاء عن

عكرمة أنه قال الم قسم. وروينا أيضاً من حديث شريك بن عبد الله بن عطاء بن السائب عن

أبي الضحى عن ابن عباس: الم قال أنا الله أعلم وكذا قال سعيد بن جبير وقال السدي عن

أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمذاني عن ابن مسعود وعن ناس من

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الم قال أما الم فهي حروف استفتحت من حروف

هجاء أسماء الله تعالى قال وأبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله

تعالى ألم قال هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الألسن كلها ليس

منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه وليس منها حرف إلا وهو من آلاته وبآلاته

وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وأجالهم. قال عيسى ابن مريم عليه السلام

وعجب: فقال أعجب أنهم يظنون بأسمائه ويعيشون في رزقه فكيف يكفرون به فالآلف

مفتاح الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجید فالآلف آلة الله واللام

لطف الله والميم مجد الله والألف سنة واللام ثلاثة سنّة والميم أربعون سنّة. هذا لفظ

ابن أبي حاتم ونحوه رواه ابن جرير ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها

وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر وأن الجمع ممكн فهـي أسماء للسور ومن

أسماء الله تعالى يفتتح بها السور فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من

صفاته كما افتتح سورة كثيرة بتحميده وتسويحيه وتعظيمه قال ولا مانع من دلالة الحرف

منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاتـه وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره

الربيع بن أنس عن أبي العالية لأن الكلمة الواحدة تطلق على معاني كثيرة كلفظة الأمة

فإنـها تطلق ويراد به الدين كقوله تعالى "إنا وجدنا آباءنا على أمة" وتطلق ويراد بها الرجل

المطـيع للـله كقوله تعالى "إن إبراهـيم كان أمة قانتـا الله حنيـفا ولم يـك من المـشرـكـين"

وتطلق ويراد بها الجـمـاعـة كـقولـه تعالى "وـجـدـ عـلـيـهـ أـمـةـ مـنـ النـاسـ يـسـقـونـ" وـقولـهـ تـعـالـىـ "ولـقـدـ

بعـثـنـاـ فـيـ كـلـ أـمـةـ رـسـوـلـاـ" وـتـلـقـ وـيرـادـ بـهـ الـحـيـنـ مـنـ الدـهـرـ كـقولـهـ تـعـالـىـ "وـقـالـ الـذـيـ نـجاـ

مـنـهـمـاـ وـادـكـرـ بـعـدـ أـمـةـ" أـيـ بـعـدـ حـيـنـ عـلـيـ أـصـحـ القـوـلـينـ قـالـ فـكـذـلـكـ هـذـاـ هـذـاـ حـاـصـلـ كـلـامـهـ

مـوجـهاـ وـلـكـنـ هـذـاـ لـيـسـ كـمـاـ ذـكـرـهـ أـبـوـ العـالـيـةـ فـإـنـ أـبـاـ العـالـيـةـ زـعـمـ أـنـ الـحـرـفـ دـلـ عـلـيـ هـذـاـ

وـعـلـيـ هـذـاـ وـعـلـيـ هـذـاـ مـعـاـ وـلـفـظـةـ الـأـمـةـ وـمـاـ أـشـبـهـاـ مـنـ الـأـلـفـاظـ الـمـشـرـكـةـ فـيـ الـاـصـطـلـاحـ

إـنـمـاـ دـلـ فـيـ الـقـرـآنـ فـيـ كـلـ مـوـطنـ عـلـيـ مـعـنـىـ وـاحـدـ دـلـ عـلـيـهـ سـيـاقـ الـكـلـامـ فـأـمـاـ حـمـلـهـ عـلـيـ

مجموع محامله إذا أمكن فمسئلة مختلف فيها بين علماء الأصول ليس هذا موضع البحث

فيها والله أعلم. إن لفظة الأمة تدل على كل من معانيها في سياق الكلام بدلالة الوضع

فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون

أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم إلا

بتقريف والمسئلة مختلف فيها وليس فيها إجماع حتى يحكم به وما أنسدوه من الشواهد

على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن في السياق ما يدل على ما حذف

بخلاف هذا كما قال الشاعر: قلنا قفي لنا فقالت قاف لا تحسسي أنا نسينا الإيجاف تعني

وقد قال الآخر: ما للظالم عال كيف لا ينقد عنه جلده إذا يقال ابن جرير كأنه أراد أن

يقول إذا يفعل كذا وكذا فاكتفى بالياء من يفعل وقال الآخر: بالخير خيرات وإن شرا

فولا أريد الشر إلا أن تقول وإن شرا فشرا ولا أريد الشر إلا أن تشاء فاكتفى بالفاء

والباء من الكلمتين عن بقيتهما ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام والله أعلم. قال القرطبي

وفي الحديث "من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة" الحديث قال سفيان هو أن يقول في

اقه"لا" و قال خصيف عن مجاهد أنه قال فواتح سور كلها"ق وص وحم وطمسم والر"

وغير ذلك هجاء موضوع وقال بعض أهل العربية هي حروف من حروف المعجم استغنى

بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تسمة الثمانية والعشرين حرفا

كما يقول القائل ابن يكتب في - ا ب ت ث - أى في حروف المعجم الثمانية

والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير. قلت مجموع الحروف

المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفا وهي - ال م ص ر ك ه ي

ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهي نصف الحروف عددا

والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصريف. قال الزمخشري وهذه

الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة

ومن الرخوة والشديدة ومن المطبقة والمفتوحة ومن المستعملة والمنخفضة ومن حروف

القلقاة. وقد سردها مفصلة ثم قال: فسبحان الذي دقت في كل شئ حكمته. وهذه الأجناس

المعدودة مكتوبة بالمذكورة منها وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله وهنها

هنها لخص بعضهم في هذا المقام كلاما فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه

وتعالى عبنا ولا سدى ومن قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تبعد لا معنى له بالكلمة

فقد أخطأ خطأ كبيرا فتعين أن لها معنى في نفس الأمر فإن صح لنا فيها عن المعصوم  
شيء قلنا به وإنما وقفنا حيث وقفنا وقلنا "آمنا به كل من عند ربنا" ولم يجمع العلماء فيها  
على شيء معين وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإنما فالوقف  
حتى يتبيّن هذا المقام.المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل  
السور ما هي مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها فقال بعضهم إنما ذكرت ليعرف بها  
أوائل السور حكاه ابن جرير وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه  
وفيما ذكرت فيه البسمة تلاوة وكتابة وقال آخرون بل ابتدئ بها لفتح الاستماع إليها إسماع  
المشركين إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه  
حكاه ابن جرير أيضا وهو ضعيف أيضا لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا  
يكون في بعضها بل غالباً ليس كذلك ولو كان كذلك أيضاً لأنني الابتداء بها في أوائل  
الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم إن هذه السورة والتي تليها أعني البقرة  
والآل عمران مدنیتان ليستا خطاباً للمشركين فانتقض ما ذكره بهذه الوجوه.وقال آخرون  
بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن

الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحکاه لي عن ابن تيمية. قال الزمخشري ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي بالصريح في أماكن قال وجاء منها على حرف واحد كقوله - ص ن ق - وحرفين مثل "حم" وثلاثة مثل "الم" وأربعة مثل "المر" و"المص" وخمسة مثل "كھیعص" - وـ "ھمھسق" لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك "قلت" ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ولهذا يقول تعالى "الله ذلك الكتاب لا ريب فيه" "الله الم لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه" "المص كتاب أنزل إليك

فلا يكن في صدرك حرج منه" "الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور

بإذن ربهم" "الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين" "حم تنزيل من الرحمن

الرحيم" "حم عسق كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك اللهم العزيز الحكيم" وغير ذلك

من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم وأما من زعم

أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتنة والملامح فقد

ادعى ما ليس له وطار في غير مطاره وقد ورد في ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدل

على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته وهو ما رواه محمد بن اسحق بن يسار

صاحب المغازي حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن

رياب قال مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

يتلو فاتحة سورة البقرة "الم ذلك الكتاب لا ريب فيه" فأتى أخاه بن أخطب في رجال من

اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه "الم ذلك

الكتاب لا ريب فيه" فقال أنت سمعته قال نعم قال فمشى حي بن أخطب في أولئك

النفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد ألم يذكر أنك تتلو فيما

أنزل الله عليك "الم ذلك الكتاب"؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بلى" فقالوا جاءك بهذا جبريل من عند الله؟ فقال "نعم" قالوا لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين النبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غير كفقام حي بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم ألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين النبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد هل مع هذا غيره فقال "نعم" قال ما ذاك؟ قال "الucus" قال هذا أثقل وأطول ألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون وهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال "نعم" قال ما ذاك؟ قال "الر" قال هذا أثقل وأطول ألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان وهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال "نعم" قال ماذا قال "المر" قال هذه أثقل وأطول ألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان وهذه إحدى وسبعون ومائتان ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندرى أقليلاً أعطيت أم كثيراً ثم قال قوموا عنه ثم قال أبو ياسر لأخيه حي بن أخطب ولمن معه من الأخبار ما يدرىكم لعله قد جمع هذا لمحمد

كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون

ومائتان فذلك سبعمائة وأربع سنين؟ فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هؤلاء الآيات

نزلت فيهم "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أُم الكتاب وأخر

متتشابهات" فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو من لا يحتاج بما انفرد

به ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف

الأربعة عشر التي ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وإن حسبت مع التكرر فأعظم

والله أعلم. ( تلك آيات الكتاب ) أي : هذه آيات الكتاب ، وهو القرآن ، وقيل : التوراة

والإنجيل . قاله مجاهد وقتادة ، وفيه نظر بل هو بعيد . ثم عطف على ذلك عطف صفات ،

قوله : ( والذي أنزل إليك ) أي : يا محمد ، ( من ربك الحق ) خبر تقدم مبتدئه ، وهو

قوله : ( والذي أنزل إليك من ربك ) هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة .

واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا ، واستشهد بقول

الشاعر إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم قوله : ( ولكن أكثر الناس

لا يؤمنون ) كقوله : ( وما أكثر الناس ولو حرست بمؤمنين ) [ يوسف : 103 ] أي : مع

هذا البيان والجلاء والوضوح ، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق .